

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدًا  
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَغِبُّ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءَ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدًا

وهكذا امتدح الندى والجود على عادة الجاهليين ، وبسط ما للنبي من ذكر عاطر سار في الأغوار والنجود ، فطاف البلاد وعمم الأقطار ، وله صدقات لا تنقطع ، وعطاء لا يفتر ، يبذل الخير لكل قاصد وطالب . وهذا مديح أشبه بأن يوجه إلى الأجواد والكرماء من رؤساء القبائل وأمراء الولايات ، ليس فيه ذكر للدين والتقوى والأخلاق . ولعل ذلك لأن الأعشى بعيد عن فهم الدين ومبادئه ، أو لعله لم يألف هذا اللون من المديح الديني ولم يسمع به من قبل ، فلما حاول أن يقول نطق به على عادة الجاهليين كما رأينا في الفصول السابقة ، لا فرق عنده بين زعيم ديني ورئيس قبيلة أو سيد في قومه وعشيرته .

وأما كعب بن زهير فقد مدحه بقصيدة سارت على الزمان ، وقلدها الشعراء على العصور . بدأها بالنسيب الخالص ثم وصف ناقته ، وانتقل بعدها إلى الرسول يمدح ما يحمل إلى المسلمين من قرآن جليل . ويعتذر بعد ذلك ويطلب العفو من النبي لما بدر منه ، فقال :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ  
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلٌ

فرسول الله كريم متسامح يقبل العفو والمعدرة ، وهو الذي حمل إلى المسلمين هدية كبيرة هي القرآن وفيه المواعظ البالغة وما يحتاج إليه المسلمون في أهولهم ، فبين فضل الرسول بالإشارة إلى عظيم رسالته ، وبين كريم يده بالدلالة على واسع هديته ، ثم انتقل إلى وصف النبي وهيبته مجلسه ومقامه :

لَذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلَمُهُ وَقِيلَ : إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولٌ (١)

(١) منسوب : أى مسئول عن نسبك .